

الإستعارة وعلاقتها بالأدبية

قراءة من دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة

للإمام عبد القاهر الجرجاني

الأستاذ حواس بري
- جامعة الجزائر -

أحاول أن أدرس الاستعارة - بعون الله وتوفيقه - دراسة أتبني فيها المنهج الوصفي وأرتاح إلى التحليل الأدبي الذي يزاوج بين قراءة النص النظري قراءة علمية ، تشرح النص وتفسره تفسيراً ينطلق من اللغة ليعود إليها ، ويرتكز على الذوق المبني على خلفية ثقافية متواضعة ، مع محاولة قراءة واعية ، تسعى إلى الوقوف على ما في النص من إشارات خفية يهدي إليها التأمل والتأني ، حتى أكون بذلك قد ألممت ، بما استطعت أن أجعله خلفية نظرية تدرس الإستعارة .

من خلال الفكر البلاغي الذي تجلّى في كتابي : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للإمام اللغوي عبد القاهر الجرجاني ؛ وهذا لأنني وجدت التفكير البلاغي للجرجاني ، في موضوع الاستعارة ، يشكل رؤية متكاملة ، محددة المعالم واضحة الأفكار ، عميقة الطرح ، كوّنها فكراً ، جمع بين العقل والذوق العالي للنصوص الأدبية ، حتى استوت صورة متكاملة . انطلقت من البسيط إلى المركب ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن المحسوس إلى المعقول ، فكانت بذلك جديرة بأن تأخذ اهتمام الباحث لجعلها نموذجاً لدراسة الاستعارة ولتكون الاستعارة نفسها مقياساً من المقاييس البلاغية للنصوص الأدبية الراقية .

تعريف الإستعارة :

عرف الإمام عبد القاهر ، الإستعارة بقوله : « الإستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في

الوضع اللغوي ، معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية⁽¹⁾ ونستخلص من هذا التعريف أن الإمام عبد القاهر ، يشترط في اللفظ المستعار أن يكون مما تعارف عليه الناس ، ودلت الشواهد اللغوية على وجوده ككائن لغوي تواضع القوم عليه واستقر في أذهانهم أنه كذلك .

أما الأمر الآخر في هذا التعريف ، فيتجلى لنا من خلاله أن الشاعر أرسطراطي في استعمال اللغة ، وله الحرية الكاملة في نقل الكلمة نقلاً لا يلزم فيه نفسه بمعناها الحقيقي وإنما يشترع لها معنى جديداً أو مفهوم طارئاً لم تعرفه اللغة من قبل .

ومن هنا تتجلى قيمة الاستعارة بوصفها قيمة أدبية فنية وقيمة أدبية تجلى الأدبية وتبرز فضاء اللغة والرحب وتبين مدى اتساع ألفاظها الى معان جديدة ، لم تعهدها من قبل كما تتجلى قيمة المشرع اللغوي بوصفه كاتباً أو شاعراً وحين يخفق في الوصول الى هذه المرتبة ، فيدرج كلامه الى النظم أو الى الكلام العادي⁽²⁾ .

وكما عرف الإمام عبد القاهر الاستعارة ، تكلم على كيفية تكوينها وحدوثها فقال : «فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء الى اسم المشبه به فتعيده المشبه وتجريه عليه ، وتريد أن تقول : رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء فتدع ذلك وتقول «رأيت أسداً»⁽³⁾ .

ومن خلال المثال الذي ساقه المنظر نهدي الى أن الاستعارة تؤدي وظيفة الاختزال والاختصار فطول الكلام الذي شكل مشهداً أو صورة ذهنية من خلال كلمات مجتمعة كما في المثال الأول اختصر في منظر مجسد ؛ يتضمن المعنى المحمول ، في العبارة الطويلة القائلة «رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه» .. فاختصر المتكلم البليغ ، هذا كله في قوله «رأيت أسداً» وهذه ميزة نسجلها ، وهي أن الإيجاز من خصائص الاستعارة ويحصل بها .

وقد قرر الإمام عبد القاهر هذه الوظيفة المهمة عندما تحدث عن الفرق بين التمثيل والاستعارة فقال «فالتشبيه ليس هو الاستعارة ، ولكن الاستعارة من أجل التشبيه ، وهو كالغرض فيها أو كالعلة والسبب في فعلها ، فان قلت كيف تكون الاستعارة من أجل التشبيه ، والتشبيه يكون ولا استعاره ؛ وذلك اذا جئت بحرف الظاهر فقلت : «زيد كالأسد» فالجواب أن الأمر - كما قلت - ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة ، فقولي

من أجل التشبيه ؛ أردت من أجل التشبيه ، على هذا الشرط ، وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلّة . كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها ؛ ألا ترى أنك تفيد بالإسم الواحد الموصوف والصفة ، والتشبيه والمبالغة ؛ وأنت تفيد بقولك « رأيت أسداً » أنك رأيت شجاعاً شبيهاً بالأسد وأن شبيهه به في الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه ، حتى إنه لا ينقص عن الأسد فيها ، وإذا ثبت ذلك ، فكما لا يصح أن يقال إن الاستعارة هي الاختصار والإيجاز على الحقيقة وأن حقيقتها واحدة ولكن يقال أن الاختصار والإيجاز يحصلان بها . أو هما غرضان فيها ومن جملة ماضعاً الى فعلها كذلك حكم التشبيه معها⁽⁴⁾ .

إن النص الذي بين أيدينا يؤكد أن الإستعارة هي درجة عليا في باب فن القول ؛ للذكاء الفائق والمقدرة على التعبير ، الذي ليتساوى جميع الناس فيه ؛ ذلك لأن المتحدث عن شجاعة زيد أو عمرو - إذ لم يكن بليغاً - فإنه سيعد لك من الأوصاف الكثيرة ، حتى تصير مجتمعة بين يديك ، وكأنها دلائل على شجاعة المتحدث عنه . ومثل هذا لا يصدر إلا عن كانت بضاعته ضحلة في اللغة ؛ نحوها وصرفها فضلاً عن كيفية تراكيبيها ، وجهل بمعرفة طرق أهل تلك اللغة في الكلام ومن هذا حاله « فإنه يستطيع أن يعبر (لك) عن حامل المراد وأصل المعنى ولا يستطيع أن يفصح عن تمام المراد »⁽⁵⁾ .

وقد نظر الشيخ ابن عاشور الى ميزة الاختصار في البلاغة عموماً وفي الإستعارة خاصة ، قال : فلو أراد أن يخبرك عما أبلاه عنتره من الشجاعة والفتك في يوم من أيامه فجعل يقول قتل فلاناً وجرح فلاناً ، وضرب الفرس فأدماه وهرب راكبه وسبأ نساءهم .. فإنه قد ذلك على مراده بعبارة غير واضحة في الدلالة على جميع المراد إذ قد يعييه العد فإن هو قال لك « كان عنتره يومئذ أسداً » فقد ذلك على جميع المراد بكلام واضح الدلالة⁽⁶⁾ .

ومن المقارنة بين كلام الذي أراد أن يخبرك عن شجاعة عنتره فأطنب في الوصف وبه : أخذ حيزاً زمنياً ، وحيزاً مكانياً ، وشد انتباه سامعه ومع ذلك لم يف بالغرض المقصود ؛ لأنه لم يوجز .

وبين كلام الذي أراد أن يخبرك عن شجاعة عنتره أيضاً فقوال : « رأيت أسداً » أو كان عنتره يومئذ أسداً ، فقد اختصر لنا الحيز الزماني والحيز المكاني ، ووفر لنفسه وللمتلقي جهداً عضلياً تعلق بجهازي الإرسال والاستقبال ونعني بها حاستي النطق والسمع .

وبهذا الاختصار والجهد الموفر فهم الكلام كونه موجزاً مختصراً ، وإذا كانت البلاغة - كما

عرفها الشيخ ابن عاشور - «هي العلم الباحث عن القواعد التي تجعل الكلام دالاً على جميع المراد وواضح الدلالة عليه»⁽⁷⁾ فإن الاستعارة تكون بذلك إحدى المعالم الأساسية في فن القول عموماً ، وفي الكلام العام على وجه التحديد .

ومع هذا فقد عد الإمام عبد القاهر أن الضرب الأول من الإستعارة هو من الإستعارة (البسيطة) كونها قريبة من التشبيه ، ولها حظ في الواقع ، ويجلي ذلك الجامع ، ولذلك ساق نموذجاً آخر من الإستعارة أراد به أن يفرق به بين المثال الأول «رأيت أسداً» وبين المثال الثاني «إذ أصبحت بيد الشمال زمامها» فقال : «وضرب آخر من الإستعارة وهو ما كان نحو قوله «إذ أصبحت بيد الشمال زمامها» هذا الضرب وإن كان الناس يضمنونها الى الأول حيث يذكرون الإستعارة فليس سواء ، وذلك أنك في الأول تجعل الشيء الشيء وليس به ؛ تفسير هذا أنك إذا قلت رأيت أسداً ، فقد ادعيت في إنسان أنه أسداً وجعلته إياه ، ولا يكون الإنسان أسداً ، وإذا قلت «إذ أصبحت بيد الشمال زمامها» فقد ادعيت أن للشمال يداً ومعلوم أنه لا يكون للريح يد . وهاهنا أصل يجب ضبطه وهو أن جعل المشبه به على ضربين أحدهما أن تنزله منزلة الشيء تذكره بأمر قد ثبت له فأنت لا تحتاج أن تعمل في إثباته وتجزئته ، وذلك حيث تسقط ذكر المشبه من البيت⁽⁸⁾ ولا تذكره بوجه من الوجوه تقول لك «رأيت أسداً» .

والثاني أن تجعل ذلك كالأمر الذي يحتاج الى أن يعمل في إثباته وتجزئته ، وذلك حيث تجري اسم المشبه به خبراً على المشبه ، فتقول زيد أسداً ، وزيد هو الأسد أو تحيء به على وجه يرجع الى هذا كقولك «إن لقيته لقيت به أسداً ، وإن لقيته ليلقيك منه الأسد» . فأنت في كل هذا تعلم في إثباته «أسداً» أو «الأسد» وتضع كلامك له ، وأما الأول فتخرجه خرج ما لا يحتاج فيه الى إثبات وتقرير ، والقياس يقتضي أن يقال في هذا الضرب أعني ما أنت تعمل في إثباته وتجزئته أنه تشبيه على حد المبالغة ، ويقتصر على هذا القدر ولا يسمى استعارة⁽⁸⁾ .

الواضح من النص ، وقد جلاه الإمام عبد القاهر وبينه ، فجعل المشبه به في الاستعارة ينقسم الى قسمين : أحدهما لا يحتاج فيه الى دليل أو برهان ، به تؤيد ما ألحقناه بالمشبه به من صفات ، فيكفي أن نذكره بها ولا نحتاج الى «أن نعمل على إثباته وتجزئته» وثانيهما أن نجعل اسم المشبه به يحتاج الى أن تمكنه من صفات المشبه فترك تؤكد ذلك بطرائق متعددة ! تريد

بها أن تثبت أن المشبه به «أسد» والظن يخيم على عقلك ، وما دمت لست متيقناً فالضرب الثاني هو تشبيه على حد المبالغة ولا يسمى استعارة .

أما فيما تعلق «بيد الشمال» فإن الإمام عبد القاهر يرى أن هذا الضرب من الاستعارة وليس من التشبيه ؛ لأننا عند إجرائه نتعسف في أداتي التشبيه (الكاف وكأن) وعد ذلك تمحلاً ليس إلا⁽⁹⁾ . وهذه الاستعارة (بيد الشمال) تنبني على «جعلك للشيء الشيء وليس له» . وما دمنا نطمئن الى فلسفة الكلام ونظمه ، والتراكيب اللغوية ودلالاتها فإننا سنخلص الى نتيجة عليها تقدم شيئاً للدين البلاغي .

وفي مبحث الإستعارة خاصة ، نعني بذلك نظم حرف الجر «في» من قوله «وليس به» في المثال الأول «رأيت أسداً» .

إن الباء - هنا - هي الملابس ، أي أن القسم الأول يؤق في المشبه به على سبيل الادعاء والمبالغة .

أما في الضرب الثاني وهو الأرق جعلك الشيء الشيء وليس له «فإن اللام هنا هي للاستحقاق أي أن جعلك للشمال يد هو من قبيل الاستعارة ؛ لأن الأحقية تجلت بالاستحقاق الذي به بدت وظيفة اليد المعارة للرياح ، وإذ بها تسيطر .

تقسيم الاستعارة من حيث القيمة الفنية

لقد بين الإمام عبد القاهر الجرجاني أن الاستعارة درجتان ؛ درجة يتساوى فيها عامة الناس وخاصتهم ، ودرجة لا ينسج على منوالها إلا الفحول ، وضرب للنوع المبذل (الأول) : «رأيت أسداً» ووردت بجرأ ، ولقيت بدرأ . كما ضرب أمثلة للنوع العالي وقام بتحليلها تحليلاً أدبياً ، زاوج فيه بين الذوق وفلسفة نظم الكلام ، وعن هذا الضرب (الثاني) يقول «فهو الخاص النادر ، وهذا لا يوجد إلا في كلام الفحول ، ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال ومنه قول الشاعر : (وسالت بأعناق المطى الأباطح) قال الإمام «أراد أنها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة وكانت سرعة في لين وسلاسة ، حتى كأنها كانت سيولاً وقعت في تلك الأباطح فجرت»^{(10)(☆)} .

ثم قال ومثل هذه الإستعارة في الحسن واللفظ وعلو الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول الأخ :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كاللدنانير أراد أنه مطاع في الحي وأنهم يسرعون الى نصرته وأنه لا يدعوهم لحرب أو نازل خطب إلا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه حتى تجدهم كالسيول تجيء من هنا وهنا وتنصب من هذا السيل وذلك حتى يغص بها الوادي ويطفح⁽¹¹⁾ .

ثم قال إن الدقة واللفظ في خصوصية (هذا التركيب) أفادها بأن جعل «سال» فعلاً للأباطح ثم عداه بالباء بأن أدخل الأعناق في البين فقال «بأعناق المطى» ولم يقل (بالمطى) ولو قال سالت المطى في الأباطح لم تكن شيئاً وكذلك الغرابة في قول الآخر سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنظاره بوجوه كاللدنانير ليس في مطلق معنى «سال» ولكن في تعديته ب (على) و(الياء) وبأن جعلها فعلاً لقوله «شعاب الحي» ولولا هذه الأمور كلها ، لم يكن هذا الحسن ، وهذا موضع يدق «الكلام فيه»⁽¹²⁾ .

فقد انطلق الإمام في تحليله العميق من اللغة بوصفها المادة الأولية لكل عمل فني ثم تأمل النظم ، فكشف له التركيب عن المعنى المبثوث في السياق الشعري ، كما هداه النظم الجامع في ما بين الحروف ووظيفتها في النظم واللفظة المستعارة وقوتها وهي تشحن بالمعنى الطارئ في هذا السياق الشعري ، وهذا ما يجعلنا نطمئن الى المنهج اللغوي كونه المنتخب والختار في الفكر البلاغي عند عبد القاهر وفي الدراسات التي تحاول أن تنتصر لبنية النص كونها طريقاً آمناً في تقريب النص من المتلقي⁽¹³⁾ .

وإن المتمتع في الدرس البلاغي عند عبد القاهر - هو التنظيم الشامل ولكن الأمتع منه قدرته على تطبيق النظرية التي حددها بقاعدة ، أسهم الذوق في تكوينها ، وألم النظم الى دلائل الإعجاز فيها ، واني أذهب الى ما ذهب إليه أحمد دهمان حيثما ذهب يتحدث عن فكر الإمام عبد القاهر البلاغي وقد جمع بين النظرية والتطبيق فقال : «لم يقف فكرة النقدي عند «التنظير» وحده وإنما جاوزه الى التذوق والتحليل للوصول الى القيم الفنية في الأثر الأدبي وردّها الى صياغته ونظمه ؛ الأمر الذي جعل لبحوثه قيمة خاصة ولا نغثر لها في موروثنا النقدي والبلاغي تقريباً»⁽¹⁴⁾ .

وهذه حقيقة لا مفر منها ، ولا يختلف هو لها المهتوب بالدرس النقدي في قراءتنا ؛ كونه يطغى الجانب النظري فيه على الجانب التطبيقي وهذا الأخير هو المهم لما له من خطورة في تأكيد النظرية ودعمها أو مخالفتها أو التخلف عنها . وبهذا الجانب بدأ الإمام عبد القاهر متميزاً

في مسلكه الذي سلكه وهو يجمع بين التراكيب ودلالاتها تارة وعلاقة النظم بالبيان تارة أخرى ولا يختلف الذوق في كل مناسبة .

وبه كان الإمام عبد القاهر صاحب فكر بلاغي أحسن الدفاع عنه بما قدمه من نماذج محللة ومدروسة أثرت الدرس البلاغي وقفزت به أشواطاً ختمت بنظرية النظم .

الإستعارة من حيث وظيفتها :

كما تظن الإمام عبد القاهر ، الى أن الاستعارة تنقسم من حيث وظيفتها الى استعارة مفيدة واستعارة غير مفيدة ، أما الإستعارة غير المفيدة فيعزوها الى الدقة في استعمال الكلمة ، وجعلها من قبيل الفروق اللغوية فيما بعد قال «كوضعهم للعضو الواحد ، أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ؛ نحو وضع الشفة للإنسان والمشر للعبيد والجحفة للفرس وما شاكل ذلك من فروق»⁽¹⁵⁾ .

وساق شواهد من الشعر العربي للإستعارة ، غير المفيدة ، ومنها قول الشاعر :

فبتنا جلوساً لدى مهننا نزع من شفتيه الصفارا

إن استعمال الشفة في الوضع اللغوي ، خاص بالإنسان لكن الشاعر عندما استعارها للحيوان فهو - برأي الجرجاني - لم يصف شيئاً الى اللغة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى «أن المتكلم إذ توهم جري الإستعارة في الاسم زالت عنها الدلالة بانقلاب اختصاصها الى الاشتراك اللفظي»⁽¹⁶⁾ .

وبه يتجلى أن الاستعارة غير المفيدة هي الى المشترك اللفظي والفروق اللغوية ، أقرب منها الى التركيب والتأليف فيما بين الصور المشكلة من الألفاظ والأصوات والحروف مجتمعة ؛ فهي درجة دنيا لا تضيف الى الابداع شيئاً تساهل به أن يقال عنها أنها مفيدة . إلا أننا لا نشاطر عبد القاهر ، رأيه هذا ؛ بل نخالفه ونرى أن هذه الاستعارة ، هي على عكس ما ذهب إليه ؛ لأننا نعتقد أن عبد القاهر لم يلتفت الى الفرض الذي يقصد إليه المتكلم ، في هذا الصنف من الإستعارة فإذا كان مقصد الشاعر مثلاً ، السخرية أو التهكم ، والهجاء بوجه عام ؛ فاستخدم المشر بدلاً من الشفة أو الحافز بدلاً من الرجل ، فإن هذا الإجراء له قيمته الدلالية التي تخدم الغرض العام الذي يريده . وهذا الاستخدام للغة لا يعدم القيمة الفنية فتصور مثلاً ، آدمياً له حافران أو مشفران فهذه الصورة التي لا مقابل لها في الواقع المعيش تدرك بالخيال فهي مما

أطلق عليه البلاغيون الممتنع الممكن ويعرفه ابن سنان الخفاجي بقوله «هو الذي يمكن تصويره في الوهم وإن كان لا يمكن وجوده مثل أن يتصور بعض أعضاء الحيوان من نوع في نوع آخر ، كما يتصور أسد في جسم إنسان ، فإن هذا - وإن كان لا يمكن وجوده - فإن تصويره في الوهم ممكن وقد يصح أن يقع الممتنع في النظم والنثر على وجه المبالغة ولا يجوز أن يقع المستحيل البتة»⁽¹⁷⁾ .

وهكذا تبنت لنا ضحالة رأي الجرجاني في هذا الضرب الإستعاري الذي عده غير مفيد في الوقت الذي يراده غيره من العلماء المهتمين بالتنظير البلاغي على عكس ذلك .
ومها يكن ، فإننا سنعرض رؤية الجرجاني للاستعارة ودورها الذي تلعبه في التشريع اللغوي ، ولذلك نواصل حديثه عن الإستعارة المفيدة ، وهي التي تحصل بها فائدة وعنها يقول الإمام عبد القاهر ما نصه :

«وأما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدة ، ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض ؛ ومكان تلك الإستعارة لم يحصل لك وجلة تلك الفائدة وذلك الغرض التشبيه .. ومثاله قولنا «رأيت أسداً» فقد استعرت اسم الأسد للرجل ومعلوم أنك أفدت بهذه الإستعارة ما لولاها لم تحصل لك وهو المبالغة في المقصود بالشجاعة ، وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدته وسائر المعاني المركزة في طبيعته ، مما يعود الى الجراءة»⁽¹⁸⁾ .

ونفهم من هذا النص أنه اذا كانت الإستعارة غير المفيدة لا تقوى على تشكيل نظم ولا تقوى على تكوين صورة أو تخيل مشهد برأي عبد القاهر فإن الإستعارة المفيدة تقف من هذا كله موقفاً معاكساً يتجلى في شكل العلاقة التي تجمع بين المشبه به وفي صورة يصطلح عليها وجه الشبه ، إن هذا الوجه يترتب وفق نظام لغوي يحدده المشرع للغة ليشكل به صورة أو إطار أو معنى قابلاً لأن يتحقق في العالم أو يجد له صورة ذهنية أو صورة مثالية .. ويتم هذا عن طريق الجمع بين المحسوس والمحسوس أو بين المحسوس والمعقول أو بين المعقول والمعقول . والضرب الثالث هو أعلى الدرجات وأشرفها ، وعن مزايا الإستعارة المفيدة وأثرها في مضمون الكلام يقول الإمام عبد القاهر : «ومن الفضيلة الجامعة فيها : أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورته ستجده تزيد قدره نبلاً وتوجب له بعد الفضل فضلاً» .

وأنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسب فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد وشرف منفرد وفضيلة مرموقة وخلاصة موموقة .

ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفه الواحدة عدة من الدرر⁽¹⁹⁾ .

وهكذا يبدو أن للاستعارة فضائل جمة ومهام كثيرة . فأما الفضائل فتتجلى في أن الاستعارة تسهم في فضل البيان وعلو مكانته بوصفه علماً قائماً ، له طرائقه ومباحثه ، أما عن قيمتها من حيث كونها تشكل إحدى المحاور الجامعة ، بين النظم وعلاقته بعلم البيان فردّه الى اللفظة الواحدة ، فقد تكرر مرات ويكون لها في كل مرة وقعها الخاص باختلاف الموقع السابق له وقد بين الإمام عبد القاهر ، أن اللفظة المستعارة تتأيز في المواضع التي تأخذها في النظم عند استعمالها عند هذا الشاعر أو ذاك قال «وسر هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحه لا تجدها في الباقي مثال ذلك أن تنظر الى لفظة الجسر في قول أبي تمام :

لا يطمح المرء أن يجتأب لجنه بالقول ما لم يكن جسراً له العمل
وقوله :

بصرت بالراحة العظمى فلم ترها تنــــال إلا على جسر من التعب
فترى لها في المثال الثاني حسناً لا تراه في الأول ثم تنظر إليها .
في قول ربيعه الرقي :

قولي نعم ، ونعم إن قلت واجبه قــــالت عسى وعسى جسر الى نعم
فترى لها لطفاً وخلاصة وحسناً ليس الفضل فيه بقليل⁽²⁰⁾ .

وهنا تظهر فصاحة الكلمة في مجموع الكلام وحسن موقعها ورشاققتها في هذا الموضع من جهة أو تخلف جمال نظمها في الموقع الآخر من جهة أخرى ؛ مما يجعل توظيف الاستعارة في العملية الإبداعية ليس بالأمر الهين ؛ لأن الاستعارة تلعب دورها الخطير في إجلاء الشعرية ، وترشيحها عند الشاعر الأصيل حتى تعدو معلماً من معالم أسلوبه المسهم في إثراء اللغة وفي خدمة الفن الشعري ، ومثل هذه الاستعارة لا يقول بها إلا القادرون على التشريع ، ولا يقدر على هذا إلا الشعراء الفحول ، أما الناظمون والمنضرون فإنهم دون ذلك .

أساليب الإستعارة العقلية وأصولها :

وبعد أن قسّم الإمام عبد القاهر الإستعارة من حيث الوظيفة ، وبانت له - كما رأينا - أنها

قسمان : قسم غير مفيد وقسم تتم به الفائدة ، ويكون به معنى يضيف الى اللغة ويسهم في إثرائها ، وإذ به غيز بين الشاعر والناظم .

عاد يتحدث عن الطرائق التي تأتي على منوالها الإستعارة ورأها لا تخرج عن أضرب ثلاثة ، وتحدث عن كل ضرب بما يطمئن إليه الباحث بما قدم له من الشواهد الدالة على تمكنه من التنظير الواعي والإحاطة الكاملة بالمادة التي هيأها أو اجتمعت له من خلال ثقافته وإطلاعه على الأصول النظرية التي أوحى له بهذا التقسيم وكانت بذلك الشواهد الأدبية ، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، تتبارى في خدمة عقل قادر ، اهتدى لها بلقراءة المتأنية ، فكانت منقادة له مطاوعة إياه ، فاستفاد منها ووظفها في تقسيم هذا الضرب من الإستعارة .

تعريف الإستعارة العقلية وأساليبها :

عدّ الإمام عبد القاهر ، الضرب الثالث من الاستعارة ، هو الصميم الخالص ، وعرفه بقوله : «وحده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور ، وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزیلة للشك النافية للريب - كما جاء في التنزيل - من نحو قوله عز وجل ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ وكاستعارة الصراط للدين في قوله تعالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم وإنك لتهدي الى صراط مستقيم﴾ فأنت لا تشك في أنه ليس بسين النور والحجة ما بين طيران الطائر وجري الفرس من الاشتراك في عموم الجنس ؛ لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة والحجة كلام ، وكذا ليس بينهما ما بين الأسد والرجل من الاشتراك في طبيعة معلومة تكون في الحيوان كالشجاعة ، فليس الشبه الحاصل من النور في البيان والحجة ونحوهما إلا أن القلب إذا وردت عليه الحجة صار في حالة شبيهة بحال البصر «ذا صادف النور ووجهت طلائعه نحوه ، وحال في معارفه وانتشر وانبت في المسافة التي يسافر طرف الإنسان فيها ، وهذا - كما تعلم شبه لست تحصل منه على جنس ، ولا على طبيعة وغريزة ، ولا على هيئة وصورة تدخل في الحلقة وإنما هو صورة عقلية»⁽²¹⁾ .

فالضرب الثالث إذن نجد الاستعارة فيه تمثل صورة ذهنية ، يلعب الخيال دوره ، في الجمع بين المتخيلات وإن لم تكن متجانسة ، وإن العقل هو الذي يساعد على هذا التركيب ، ويلائم فيما بين أطرافه وهذا عن طريق المقارنة بين النتائج التي تترتب على وجود النور ، وتوفره في

حيز مكاني معين ؛ فحين يراه المرء أهتدى به ، وكذا إتباع الصراط المستقيم : المؤدي الى المكان الآمن لا محالة .

فالصورة ههنا صورة عقلية بحتة ، فإذا استعار الصراط المستقيم للدين ، فإن الداعي لهذا هو العقل الصافي ، كيف لا ! وقد ميز بين الطريق المعوج والصراط المستقيم ، فتيقن أن الإسلام ، مثله مثل الطريق الموصلة الى الهدف المأمول والمكان المرجو ، فلم يجد مندوحة في أن يطلب الاهتداء في الطريق المستقيم ، وقد استعاره للإسلام .

بالرغم من أننا لا نجد الجوامع بين الإسلام والطريق المستقيم متى نلمسه أو نحسه . إن المعول عليه في مثل هذا الضرب الاستعاري ، هو العقل وحده بوصفه المدعو الى إيجاد علاقات بين ما هو معنى من المعاني ، وبين ما هو محسوس يرى في الواقع ، ولذلك فالصورة - هنا - لا تمثل هيئة أو شكلاً أو توحى بلون أو طعم ، وإنما هي صورة مثالية يجب أن تطلب .

وفي مثل هذا المعنى قال الإمام عبد القاهر «فليس الشبه الحاصل من النور في البيان والحجة وغوهما ، إلا أن القلب اذا وردت عليه الحجة صار في حالة شبيهة بحال البصر ، إذا صادف النور ووجهت طلائعه نحوه وجال معارفه ، وانتشر وانثبث في المسافة التي يسافر طرف الإنسان فيها ، وهذا كما تعلم شبه ليست تحصل منه على جنس ولا على طبيعة وغريزة ولا على هيئة أو صورة تدخل في الخلقة وغنا هو صورة عقلية»⁽²²⁾ .

وقد أجاد الإمام عبد القاهر في وصف هذا الضرب حينما قال : «واعلم أن هذا الضرب هو المنزل التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع بها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها ، وهاهنا يخلص لطيفة روحانية : فلا يبصرها إلا ذو الأذهان الصافية والعقول النافذة والطباع السلية ، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة وفصل الخطاب»⁽²³⁾ .

إن التأمل في هذا الكلام يجد الشيخ عبد القاهر قد عدّ مضمون الكلام شرطاً من شروط فهم الاستعارة ، وأداة من الأدوات التي ينبغي للقدام على دراستها أن يتسلح بها ؛ لأن هذا الضرب من الاستعارة يدق ويلطف حتى لا يتساوى الناس في فهمه فضلاً عن استخلاصه واستنباطه من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والشواهد الشعرية العالية .

ولعل الصواب لا يجانبنا ، إذا قلنا بأن الإمام عبد القاهر قد لخص شروط دراسة هذا الضرب من الاستعارة وهي :

- الإمعان الجيد في النموذج ، وهذا شرطه الذكاء ، وما دامت النماذج كثيرة - وخاصة في القرآن الكريم - فإننا نمر بهذا الضرب دون أن ننتبه إليه ، أو نعين شواهد ، إلا إذا كررنا قراءة النموذج مرات ومرات ؛ لأن الاستعارة فيه دقيقة ولطيفة يكاد يتم استخراجها . وهنا تصير الدربة والممارسة أمراً ضرورياً ، حتى يتدرب العقل على فهم الحقائق والفروق ، ليتمكن فيما بعد من القدرة على المفاضلة بين النماذج المعروضة عليه .

ونستشف أمراً آخر ، من كلام عبد القاهر ، وهو أن المتمرّد على الحق الجاحد إياه ، والناكر لآياته الدالة عليه ، لا يمكنه الاهتداء الى مثل هذه الاستعارة لوجود أحكام مسبقة لديه في النموذج المعروض - وقد تضمن الاستعارة التي تشترط في دراستها استعمال العقل - لأن تشكيلها مكون تكويناً عقلياً . وقد أفصح لنا عن هذا الفهم المتواضع قول المنظر الصريح «والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة وتعرف فصل الخطاب» ، وفي هذا تعريض بالكافرين والجاحدين والمعاندين ، وهكذا تأكد لنا أن هذا الضرب من الاستعارة في القرآن الكريم خاصة ينبغي أن يندرج في آيات الاستدلال وسنبين ذلك أكثر في مواضع الدراسة من الصفحات القادمة إن شاء الله سبحانه .

وبين أيدينا نص آخر يؤكد هذا المعنى ، ولأهميته البالغة وقيّمته العلمية في الموضوع الذي نحن بصدد دراسته نسوقه لنرى ما فيه ، من قوة فكر المنظر وقدرته على الاستيعاب والاستنباط من جهة ، والتنظير المصحوب بالإحاطة والدقة من جهة أخرى . قال الإمام عبد القاهر ما نصه : «وفي الإستعارة بعد من جهة القوانين والأصول ، تشغل الفكر ومذهب القول ، وخفايا ولطائف تبرز من حجبها بالرفق والتدرج والتلطف والتأني»⁽²⁴⁾ .

إننا لا نبالغ إذا اعتبرنا الإمام عبد القاهر أول منظر للبلاغة العربية ، بهذا الفهم وهذا العمق ، وقد دلنا على هذا الاعتبار ولهذا الحكم : نفاذ بصيرته ، وذكائه الوقاد وقد بدا في كل مسألة من المسائل التي عالجها أو أسس لها . وقد وجدنا الأدلة تطفح بمؤلفيه الطموحين ، دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ؛ قوة حجة وعمق فهم ، وقدرة تأسيس للنظرية البلاغية التي تتجلى في النظم الجامع⁽²⁵⁾ والحد الواضح الذي تبدو فيه دلائل استخدام العقل وتوظيفه جلية ، وقد وقفنا على ذلك في النص الذي سبق ، ويجدر بنا أن نقف - من خلال النص الأخير - مع هذا العقل المدرك لماهية الاستعارة وفلسفتها عند المشرع للغة ، وفي استنباطها عند قارئ التشريع اللغوي من خلال وصفه لهذا الضرب الاستعاري فنقول : إن للعقل حظاً وافراً في

تكوين هذا الضرب من الاستعارة عند الشاعر وغيره .. وللعقل مهمة عظيمة ، وشرف كبير في الإعراب عن مسالكها الدقيقة والخفية ، ومثلها يحتاج الى ذهن صاف وذكاء خارق ، وصبر طويل ، حتى يستطيع الولوج إليها ويسلك مسالكها وهو في مأمن من المزالق والهفوات التي يقع فيها من لم يمتلك هذه الأوصاف .

ولعلنا نكون بهذا قد بينا أن فكر الإمام عبد القاهر قد شكل تصوراً ناضجاً للاستعارة من خلال حديثه عنها بهذا العمق ، وهذا التحديد وذلك لا يستعاب . ولعل الصواب لا يجانبنا ، اذا قلنا : إن الاستعارة - كما تحدث عنها الإمام - كشكل مبحث خصباً في فن القول ، انطلاقاً من تعريفها وتقسيمها حسب الوظيفة ثم دورها من الوجهة الفنية التي بها تضيف الى اللغة ما لم تعهده من قبل ، كما تؤكد الشعرية وتزكي أدبية المبدع .

الهوامش

- (1) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ، ص 22 .
- (2) فصل مستويات الأسلوب المهادي الطرابلسي ، أنظر مجلة «فصول» العدد الأول ، أكتوبر - ديسمبر 1982 ، ص 86 وما بعدها .
- (3) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمود شاكر ، ص 67 .
- (4) أسرار البلاغة ، ص 207 - 208 .
- (5) موجز البلاغة ، محمد الطاهر ابن عاشور ، ص 4 .
- (☆) يعني غير البالغ .
- (7,6) موجز البلاغة ، ص .
- (☆) يعني من بين الكلام .
- (8) دلائل الإعجاز ، ص 67 - 68 .
- (9) أسرار البلاغة ، ص 37 .
- (10) دلائل الإعجاز ص 74 - 75 ، وفصله أكثر في أسرار البلاغة ، ص 36 - 37 .
- (12,11) دلائل الإعجاز ، ص 75 - 76 .
- (13) أنظر التحليل اللغوي وجاليات النص ، حواس بري مجلة اللغة والأدب - جامعة الجزائر ، عدد 5 . 1994 .
- (14) أحمد دهمان ، الصورة البلاغية عند عبد القاهر منهجاً وتطبيقاً ، دار طلاس سوريا 1986 ، ص 11 .
- (☆) ألف في هذا الشعالي كتاباً أسماه فقه اللغة وهو في صميم الفروق اللغوية ومثله كتاب «الفروق» لأبي بكر العسكري .
- (16,15) أسرار البلاغة ، ص 22 - 24 .
- (17) سِر الفصاحة ص 234 - 235 ، وأنظر نقد الشعر لقدماء ص 141 ، وقانون البلاغة للبغدادي ضمن رسال البلغاء ص 413 .
- (18) أسرار البلاغة ، ص 24 .
- (19) أسرار البلاغة ، ص 33 .

- (20) أسرار البلاغة ، ص 78 - 79 .
- (21) أسرار البلاغة ، ص 49 - 50 .
- (22) أسرار البلاغة ، ص 50 .
- (23) أسرار البلاغة ، ص 49 - 50 .
- (24) أسرار البلاغة ، ص 70 .